محاضرة الرثاء في الأندلس

تنبيه:

- يجب الجمع بين المحاضرات والكتاب
- النصوص التي يُستشهد بها يتم الإشارة إلى صفحتها.

****

الرثاء اصطلاحاً :

يعد غرض الرثاء من الأغراض الشعرية المعروفة والواسعة النظم قديماً وحديثاً، "وهو باق لا يفنى ما دام الإنسان كائناً اجتماعياً له علاقاته وروابطه مع الآخرين، يعيش خضم الحياة ويعاني متاعبها، ويفجع بمصائبها، وما دام هناك موت وفناء يعقبان الحياة ويصدمان الموجودات"[١]، "وهو تعبير عن عاطفة إنسانية نحو الميت ، ومحاولة ذكره بتمجيده وإظهار التفجع به والحزن على فراقه "[٢]، وفي ذلك يقول **ابن رشيق:**" وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بيِّن الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام "[٣].

ويقول **حازم القرطاجني:** "وأما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيرا للتباريح، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ، وأن يستفتح فيه بالدلالة على المقصد ولا يصدر بنسيب؛ لأنه مناقض لغرض الرثاء"[٤].

ويرى **قدامة بن جعفر** أنه " ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يُذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل : كان ، وتولى ، وقضى نحبه ، وما أشبه ذلك .

---

[١] الشعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس: محمد مجيد السعيد، ص ٢٩٤.

[٢] الشعراء المروانيون في الأندلس : مصطفى أبو شارب، ص ٢٥٢.

[٣] العمدة في محاسن الشعر: ابن رشيق القيرواني ت ٤٦٣هـ ، ج٢ ص ١٤٧

[٤] منهاج البلغاء: حازم القرطاجني، ص ٣٥٢.

وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه ؛ لأن تأبين الميت إنما هو مثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شئ ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير كان وما جرى مجراها ، وهو أن يكون الحي مثلاً يوصف بالجود ، فلا يُقال : كان جواداً ، ولكن يُقال : ذهب الجود ، أو فمن للجود بعده ومثل: تولى الجود وما أشبه هذه الأشياء... ومن الشعراء من يرثي بكاء الأشياء التي كان الميت يزاولها، وغير ذلك "[١].

فقدامة يرى أن الرثاء ذكر محاسن الميت كما أن المدح ذكر محاسن الحي ، ومن ثم يرى أنه لا فرق بينهما إلا في اللفظ ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالرثاء أصدق الفنون الشعرية مشاعراً، وأشدها عاطفة، فالتجارب الشعرية التي يعيشها الشاعر هي المفجر لقريحته الأدبية، والمحرِّك لعواطفه الساكنة، فتدفعه دفعاً لكي يرسم لنا بكلماته نظماً يعبر عما يجيش في صدره، وكلما قويت التجربة الشعورية أبدع وتفنن في نظمه، كما أن" الرثاء تعبير عن الصلة المترابطة بين الأحياء والأموات ، فالذي يرثي حبيباً له لا يعبر عن محاسن ذلك الحبيب فقط ، ولا يمدحه فقط ، وإنما يخفف عن نفسه ما ينتابها من حزن لفراق هذا العزيز ... ويشفي قلبه مما حل به من السقم نتيجة الفراق ... فالرثاء إذن علاج للحي وتخليد لمحاسن الميت ، وتعبير عن التعاطف والتراحم بين الناس ، وهو سمة من سمات التماسك الاجتماعي"[٢].

يقول أحمد بدوي : " لم يتحدث قدامة في الرثاء عن العنصر الأساسي في هذا الفن من بين فنون الشعر ، وهو بكاء الميت وإظهار اللوعة والأسى لفقدانه ، ذلك هو الذي يصبغ به الرثاء ويصبح بذلك متميزاً عن المدح"[٣].

---

[١] نقد الشعر: قدامة بن جعفرت٣٣٧هـ ، تحقيق . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص١١٨.

[٢] محاضرات في الفنون الأدبية بالأندلس: شعبان مرسي ، دار الثقافة العربية ، مصر ، السادسة ، ٢٠٠٩م. ، ص ٦٥

[٣] أسس النقد الأدبي عند العرب: أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، الثالثة ، ١٩٦٤م ، ص ٢٢٧

فقدامة إذن أغفل ما يميز الرثاء عن غيره من فنون الشعر ، وهو عاطفة الأسى والحزن ، وقد " قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأنا نقول وأكبادنا تحترق... وكانت بنو أميّة لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي. قيل: ولم ذاك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق "[١].

أما ابن رشيق القيرواني وإن كان قد تنبه لما أغفله قدامة ، فإنه قد قصر الرثاء على طبقة الملوك والعظماء فقال :" وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بيِّن الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً"[٢].

ويعلق أحمد بدوي على كلام ابن رشيق فيقول : " ولست أدري كيف قصر ابن رشيق التفجع والحسرة والتلهف والأسف والاستعظام على الملوك والرؤساء الكبار ، مع أنه قدم في هذا الباب – باب الرثاء – رثاءً متفجعاً متلهفاً يقطر دموعاً ، قد قيل في حبيبة ماتت ، وزوج مضى ، وطفل قضى ، ولكن العصر الذي عاش فيه ، وتاريخ هذا الفن الذي كان للعظماء منه نصيب الأسد ، وقلّ بالنسبة إليه رثاء غيرهم من عامة الناس ، وأعزاء الشاعر ... فالرثاء لا يقف عند العظماء ، واللوعة ليست وقفاً على رثائهم ، والاستعظام للموت لا يحس به الراثي عند موت العظماء فحسب ، بل يحس به من فقد عزيزاً عليه"[٣].

وللرثاء وظائف كثيرة منها :

" **أولاً : وظيفة نفسية** : حيث يكون الرثاء متنفساً لكل مشاعر الحزن واللوعة ؛ لأنه يمثل صدق التعبير الشعوري النابع من نفس فقدتْ ، وهذا الفقد يؤدي إلى فيض من المشاعر والأحاسيس والآلام .

---

[١] البيان والتبيين: الجاحظ ت ٢٥٥هـ ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ،١٤٢٣ هـ ،ج٢ ص ٢١٨

[٢] العمدة: ابن رشيق القيرواني ج٢ ص ١٤٧

[٣] أسس النقد الأدبي عند العرب: أحمد بدوي ، ص ٢٢٨-٢٢٩.

الثانية : يجسد الرثاءُ الوفاء الذي لا ينتظر أجراً

الثالثة : الرثاء... كثيراً ما يكون سجلاً للفضائل والأعمال الخالدة

ينظر الشواهد في الكتاب المقرر

وقد دارت المراثي الأندلسية حول ثلاثة أمور: الندب، والتأبين، والعزاء.

(١) **الندب:** هو" النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع"[١].

لقد حرص الشعراء الأندلسيون في رثائهم لمن فقدوهم على أن يجسموا الخسارة الفادحة فيمن يرثونهم، فأبرزوا أثر موتهم وفجيعة فقدهم، وبكوا وأبكوا كل ما يتصل بهم في صورة تظهر المشاركة الوجدانية بين الفقيد وما كان يتصل به، ومن الأمثلة على ذلك ما نظمه ابن عبد ربه في فقد وليده اللذين هصر الموت غصن أحمدهما، وهو لا يزال في ريعان شبابه، وأما الثاني فكان صبياً لم يبرح زمن الطفولة

(٢) **التأبين:** " ليس التأبين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ يخر نجم لامع من سماء المجتمع ، فيُشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه ، ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي ، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو إنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلح في هذا التسجيل ، وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفراً لا تنسى على مرّ الزمن "[٢].

---

[١] الرثاء: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الرابعة، ص ١٢

[٢] الرثاء: شوقي ضيف ، ص ٦

(٣) **العزاء:** " مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معانٍ فلسفية عميقة ، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود ، ومرد هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم . عبارة يرددها الشاعر الجاهلي ويحللها الشاعر العباسي ، وما يزال الشعراء يحللون فيها متحدثين عن الخلود أو عن الفناء

ينظر الشواهد في الكتاب المقرر

يمكننا أن نقسم الرثاء في الأندلس كما هو موضح في الشكل التالي:

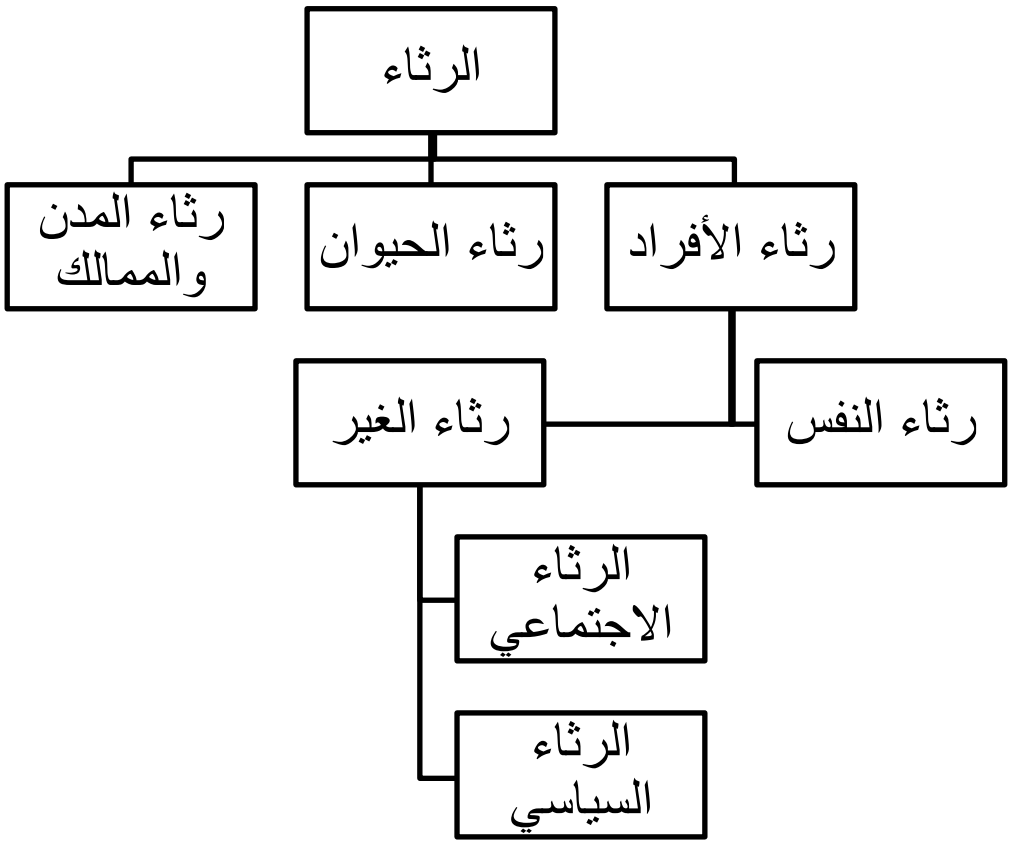

وفيما يلي عرض موجز لهذه الأقسام

أولاً: رثاء الأفراد

(١) رثاء النفس.

إن النفس البشرية حساسة بطبعها فكيف لو كانت نفس شاعر مرهف الحس كثرت حولها المرارة ،والغربة ، وألم الفقر ، والمرض ، والانكسار ، والتفت حولها المصائب التفاف السوار بالمعصم ، كل هذا يدفع الشاعر إلى رثاء نفسه .

ورثاء النفس " أن ينعي الشاعر نفسه إلى الأهل والأصدقاء بحلول أجله ودنوّ ساعة رحيله ؛ لإثارة لواعج الأسى واستدرار الدموع عليه ، من خلال رسم صورة حياته التي انتهت إلى اليأس من الدنيا "[١].

(٢) رثاء الغير

أولاً: الرثاء الاجتماعي

هو ذلك اللون من الرثاء الذي يتعلق برثاء: الأبناء، والآباء، والأزواج، والأقارب، والأصدقاء، فضلاً عن لون جديد ظهر في الأندلس يدور حول: رثاء الجواري والغلمان[٢]، الأمر الذي يبرز اللحمة الاجتماعية بين طبقات المجتمع الأندلسي.

---

[١] عبد اللطيف عيسى : شعر الرثاء في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ، ص ٢٣، ويبدو شغف الشعراء ببكاء الناس عليهم بعد موتهم منذ الجاهلية ، ومنهم من أوصى بذلك كطرفة بن العبد الذي قال : (الطويل)

فإن مُتُّ فانعنيني بما أنا أهلهُ ... وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معْبد

ولا تَجْعَلِيني كامرىءٍ ليسَ هَمُّهُ ... كهمّي ولا يُغني غنائي ومشهدي

شرح المعلقات السبع: الزوزني ، ص ٩٣

[٢] **انظر المزيد عن رثاء الجواري في:**

- الجواري وأثرهن في الشعر العربي في الأندلس: جانان عز الدين شبانة، ماجستير، إشراف. أد. حسن فليفل، قسم اللغة العربية، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠٠٢م.

ثانياً: الرثاء السياسي

الرثاء السياسي هو ذلك الرثاء الموجه إلى رجالات الدولة والقائمين على الحكم، ولقد سار الأندلسيون على نهج المشارقة في رثاء رجالات الدولة من السلاطين والأمراء والوزراء والقادة[١] من حيث: " التفجع على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب ، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة ، وكانوا يستهلون مراثيهم بالحكم كالمشارقة ، إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها"[٢].

ينظر الشواهد في الكتاب المقرر

تطبيقات :

(١) اشرح بالاستشهاد أسباب ازدهار رثاء النفس في الأندلس .

(٢) قدم تحليلاً وافياً لقصيدة المعتمد بن عباد التي رثى فيها نفسه ؟

(٢) اشرح بالاستشهاد أسباب ازدهار الرثاء السياسي والاجتماعي في الأندلس.

- رثاء الزوجات والجواري في الشعر الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " : حمدي أحمد حسانين، صحيفة دار العلوم للغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية، الإصدار الرابع، مصر، المجلد ١٦، العدد ٣٠، يوليو ٢٠٠٩م

[١] انظر المزيد عن الرثاء السياسي في رسالتنا: الشعر السياسي في مملكة غرناطة: إعداد. إسلام ربيع عطية، دكتوراه، إشراف: الأستاذ الدكتور. فوزي سعد عيسى، والأستاذ الدكتور: أحمد فهمي عيسى، قسم اللغة العربية، كلية الآداب – جامعة دمياط، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، ص٢٠٦-٢٢٨.

[٢] في الأدب الأندلسي: جودت الركابي ، ص ١١٤.